

الأنبياء جميعا ذوو نَسَب في أقوامهم

..... فلما ذكر أنه ذو نسب قال له هرقل: كذلك الأنبياء بُعِثَتْ في أنساب قومها؛ يعني اختار الله تعالى من الأنبياء مَنْ يكون شريفاً في قومه، ومن يكون له مكانة ورفعة، ومنزلة رفيعة. فهكذا بعث الله تعالى نوحاً في وسط قومه، وكذلك هود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط ونحوهم، كل منهم كان من أشرف قومه، ومن أشهرهم، فكذلك نبينا صلى الله عليه وسلم اختاره الله تعالى، وهو من أفضل قومه، ومن أشهرهم، ومن أشرفهم، ومن أصدقهم، كانوا يسمونه الأمين، فله مكانة، وله منزلة في قَوْمِهِ كسائر الأنبياء. ولا شك أن هذه الميزة تُكْسِبُهُ فضلاً، وإن كان صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأن الشرف هو التقوى، وأن شرف الدنيا وشهرتها وسمعتها لا تُقَرَّبُ عند الله، وإنما الذي ينفع الإنسان عَمَلُهُ؛ لقول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } وكذلك كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن الافتخار بالآباء الذين ماتوا، ويقول: { أَلَا يَنْتَهين أقوام عن فخرهم بأبائهم الذين ماتوا إنما هم فَحْمٌ من فَحْمٍ جَهَنَّمَ } ويقول: { إن الفخر إنما هو مؤمن تقى، أو فاجر شقى، الناس كلهم بنو آدم، وأدم من تراب } وهكذا كانوا. إنما يفخر الإنسان بأفعاله، لا بأفعال آباءه وأسلافه فإنها لا تنفعه. وبكل حال، فإن هذا مما يَخْتَارُهُ الله تعالى أَنْ يُبْعَثَ النبي من أشرف قومه، حتى يكون له مكانة، ولا يستطيعوا أن يجحدوه، وأن يجحدوا فضله، وأن يزدروه ويحتقروه، ولهذا بعثه الله ولو كان فقيراً كما في قول الله تعالى: { وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى } كان فقيراً، وكان يتيمًا، ولكن مع ذلك اختاره الله تعالى وَقَضَّاهُ، وكذلك ذكر الله قول المشركين: { لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } يقترحون أن يكون الذي أنزل عليه القرآن من أشرف الناس، لا يكون هذا اليتيم وهذا الفقير، ولكن الله تعالى يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، كما أخبر بذلك لما أن المشركين { قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } يقولونه لرسولهم، فقال رسولهم: { إِنْ تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } فهذا فضل الله، وهذه مِثْنُهُ على العرب عندما بعث منهم هذا النبي.